

كتاب الشهر

شحرور الوادي... صاحب أول ملحمة شعرية في الزجل اللبناني

في "لبنان في الحرب العالمية الاولى - تجربة ملحمة في الزجل اللبناني" وضع الباحث نبيل ابومراد تحت مجهر النقد اول ملحمة شعرية في الزجل اللبناني من توقيع "شحرور الوادي" واخيه والد الفنانة الراحلة صباح

"للزجل اللبناني قيمة عظيمة... والزجل اللبناني هو احدى هذه الظاهرات في تاريخ تطورنا الادبي. وتنبثق قيمة الزجل اللبناني من كونه شعرا يُحس ويعقل ويصور وينغم بهذه اللغة العربية العامية التي يتناولها الشعب في يسر وسهولة". هكذا وصف الاديب والصحافي والشاعر رثيف خوري (1913 - 1976) الشعر الزجلي الذي هو "لغة الحياة" كما سماه ايضا الصحافي والشاعر رشدي المعلوف (1914 - 1980). لقد كان الشعر العامي، بما يتضمنه من ميجانا وموشح ومعنى وقرادي وعتابا وقصيد، من اوائل الاشكال الفنية الشعرية التي شكلت "لغة الشعب الفكرية" ولسان حاله، خصوصا انه تناول مواضيع اجتماعية وتاريخية ووصف الحروب والكوارث الطبيعية وفق ما يورد كتاب "رواد الشعر العامي في لبنان" للدكتور ميشال خليل جحا.

انطلاقا من ان هذا الشكل الشعري هو مرآة الشعوب في احوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، يأتي كتاب جديد اضيف الى المكتبة العربية. انه "لبنان في الحرب العالمية الاولى - تجربة ملحمة في الزجل اللبناني" (تحقيق وتقديم نبيل ابومراد - منشورات جامعة الروح القدس في الكسليك). العمل عبارة عن "اول ملحمة في الزجل اللبناني تعود الى عام 1922، وهو تاريخ نشرها، وهي على الارجح وضعت قبل هذا التاريخ، من تأليف الاخوين اسعد الخوري الفغالي، قبل ان يلقب في ما بعد بـ"شحرور الوادي" وشقيقه جرجي والد الفنانة صباح".

يورد المخرج المسرحي والكاتب اللبناني في مقدمته للعمل بأن الكتاب الذي هو عبارة عن مطولة شعرية، لم يكن يحمل عنوانا، فسمح لنفسه بان يعطيها عنوانا استثنائيا هو "لبنان في الحرب العالمية الاولى" لان موضوعها يقارب

البلد في ظل الحكم العثماني وبعده الانتداب الفرنسي. وقد عثر عليها ابومراد في كتيب بعنوان "شمس المعنى" احتوى على هذه المطولة الشعرية، الى جانب مباراة زجلية بين الاخوين اسعد وجرجي وشقيقتهم هيفا، مع اشعار للوالد خليل.

اذ، الكتاب وثيقة "شعرية" عن احوال البلاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية خلال حقبة مهمة من تاريخه. طبعاً، "شحرور الوادي" اشهر من نار على علم. هو اسعد الخوري الفغالي (1894 - 1937) ابن بلدة بدادون، تتلمذ على يد والده خليل الفغالي الذي سيم كاهنا باسم الخوري لويس. ثم تابع دراسته في وادي شحرور ومنها الى المدرسة الوطنية ثم مدرسة بسوس. الف اول فرقة زجلية سنة 1928 اشتهرت بـ"جوقة شحرور الوادي" وتميز شعره بـ"الارتجال والمبالغة والكلام الجميل والعزل والمديح" والتغزل باماكن لبنانية وبلبنان "المكان الهائن الذي يحلو فيه العيش" بحسب ميشال خليل جحا.

هذا ما يعرفه الكل عن "شحرور الوادي". لكن كتاب "لبنان في الحرب العالمية الاولى..." هو اكتشاف اثر شعري نادر على حد تعبير نبيل ابومراد، دخل التاريخ بوصفه اول ملحمة شعرية في الزجل اللبناني رغم افتقاره الى معايير ومقومات كثيرة لاستحقاق وصفه بالملحمة. الا انه لا يجب ان ننسى ان "شحرور الوادي" واخاه الفا هذا العمل وكانا لا يزالين مراهقين.

يشير ابومراد الى انه لا تجوز مقارنة هذه الملحمة الزجلية بالنصوص الملحمة الكبرى، و"لم نلجأ الى الاحكام الصارمة بمعنى اننا لم نتطرق الى المنهجية الشعرية في بناء الصورة والرؤية الفنية والابعاد الفكرية بشكل معمق،

خصوصا ان واحدا من ابناء منطقتهم كان من بين الشهداء الذين شنقهم جمال باشا وهو مسعود الهليل، ابن وادي شحرور الذي خصه الناظران بعشرات الابيات".

وفي كتابة هذه المطولة، استند الناظران بحسب ابومراد الى كتاب تاريخي عن لبنان هو "لبنان في الحرب او ذكرى الحوادث والمظالم في لبنان في الحرب العمومية" (1914 - 1919) وهو من تأليف الخوري انطوان عيّن اللبناني، اذ ان الاحداث المذكورة في كتاب عيّن يستعيدنا الاخوان ايضا شعرا زجليا. مثلا، تمر مطولتهما على احداث تاريخية عدة ابرزها: قصة اغتيال ارشيدوق النمسا التي اشعلت الشرارة الاولى للحرب العالمية الاولى، وبداية دخول الاتراك الى لبنان، وكيف كان الجنود يسرقون البيوت في الليالي، ووصف حال الناس بالتفصيل، وبيع مقتنياتهم، وحملة جمال باشا الى ترعة السويس وانكساره هناك، وذكر الشهداء الذين شنقوا فردا فردا، والحديث عن المرابين، وعن الام التي تدفن اطفالها احياء، والاطفال الذين يسرقون الحبوب من افواه النمل، وقصة جيفة الحصان النافق التي اكلها اهال في بلدة رياق وماتوا، ومجيء الجراد... لوحة زجلية تؤرخ لاحداث لبنان عبر التاريخ. وكما سيلاحظ قارئ المطولة (تألف من 730 بيتا)، فانها تعتمد النهج القديم في القول الزجلي، الذي لم يكن يولي اهمية كبيرة للوزن والايقاع. لذا، فقد جاءت مشوبة بالكثير من التكسير في الاوزان. كما ان الناظرين استعملوا فيها بعض الكلمات الفصيحة، الى جانب فذلكات لغوية بالعامية هي غريبة عن لهجتنا اليوم.

اذ، تبدأ الملحمة الشعرية بوصف اغتيال الارشيدوق النمساوي فرانز فرديناند في 28 حزيران 1914 في اثناء زيارته سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك. ادى ذلك الى دخول النمسا الحرب ضد صربيا، لتكر سبحة الدول الاوروبية المنخرطة في الحرب العالمية الاولى، من روسيا وصولا الى الامبراطور الالماني غليوم الذي هاجم بلجيكا لفتح الطريق الى فرنسا ومنها الى انكلترا.

نقرأ في الملحمة: هجم غليون بالعسكر/ وقال للقائد لا تنسا/ هدم البلجيك والاسوار/ وفتح الدرب على فرنسا".



غلاف الكتاب.

مطولة من 730 بيتا تعتمد النهج القديم في القول الزجلي

ثم يعرج الاخوان على دخول العثمانيين لبنان بعدما ساندوا الالمان في هجومهم، ونزول ارتال الجيشين في لبنان.

نقرأ: "بهلال تشرين الثاني/ وصلوا جنود بني عثمان/ وجيش النسر الالماني/ نزلوا طوابير في لبنان".

سيطر الخوف على لبنان واهله الذي خشوا على رزقهم (واخذوا كل البنات/ الاجانب في كل محل/ وجميع الامتيازات..). فمن اللبنانيين من هرب، ومنهم من سقط ومات نتيجة ضربات المهاجمين، ثم بسبب ظلم جمال باشا السفاح.

ويتوقف الناظران عند اسماء الشهداء الذي شنقهم جمال باشا في لبنان وسوريا، ويصفان حاشيته خصوصا ازلامه والتجار الذي حرموا الناس من تحصيل الرزق وافقروهم حتى باعوا

مقتنياتهم بابخس الاثمان: "باع اللحمة والمده/ وصار يدلل عالشقه/ والشاقوف والهده/ وكل قطعة ولها طقه/ من الرنيطة للشده/ من القميص حتى الشنتان/ والزنا والصدريه".

هكذا يتعمقان في وصف احوال البلاد والعباد تحت نير الحكم العثماني، ليستبشرا بمجيء الانتداب الفرنسي ويهللا له في البداية. الا انه لاحقا سزى انهما يوجهان انتقادات كثيرة الى هذا الوجود، خصوصا لهجة تأثر العادات والتقاليد اللبنانية بالثقافة الوافدة، وتخليها - بحسب رأيهما - عن اصالتها لصالح ثقافة غريبة ومرفوضة في بعض سلوكياتها من عادات المجتمع. بعد كل هذا الظلم والجور والفقر والمجاعة والبطش والعذاب، ستأتي فرنسا الى لبنان وسيرحب بها الاخوان في ملحمتهما:

"ونجي الشعب من الويلين/ وانعم بفرنسا علينا/ ارتاح القلب من الميلين/ ومن شهوتنا تملينا/ وتخلصنا من الوعلين/ وحن الفرح الينا...".

مع تقدم السرد، نلاحظ ان تحولات جديدة طرأت على المجتمع اللبناني مثل وصول السيارة واستعمالها من الطبقة الثرية، وانشاء الفنادق الحديثة، وتنظيم الحفلات الغنائية والراقصة. لكننا ايضا نستشف عدم رضى الاخوين عن بعض السلوكيات والظواهر الغريبة الوافدة الى المجتمع اللبناني وسيطرة موضة مسابرة وجريئة تبعد عن "الحشمة".

هكذا نقرأ مثلا: "موضة بتشوف فساطين/ بلا كمام وممسوخين/ والتقويرات متسعين/ ومفتوحين عا بو تسعين/ والجدايل مرتفعين/ لقرص المخ ومعكوفين/ وشلش الوتاب التخين/ ظاهر بين الشرايين/ والزنود معرايين/ واللقطينات مدلوقين/ سالمهم كفتا رغبانين/ في هالملبوس اللعين/ يبقولوا الاوروبيين/ جرنالاتن مطبوعين/ وملبوساتن مرسومين/ فيها وموضة مدروجين...".

تنتهي المطولة بمجموعة نصائح يسديها الاخوان اسعد وجرجي الخوري الفغالي للمجتمع اللبناني كي ينظم اموره ويبدل جهوده بهدف "بناء مجتمع جديد قائم على الوعي والتأزر والشروط الاخلاقية والوطنية الصحيحة اذا ارادوا ان يكون لهم وطن حقيقي".